قضية الإعجاز القرآنى
وأثرها فى البلاغة

كان القرآن الكريم أساسًا لدراسة كثير من علوم العربية: لغة ونحوا وبلاغة ونقدًا، فقد شغل العرب به منذ أن هبط به الوحى، واستمع إليه الناس. وبعد أن قامت الفتوح الإسلامية، وانتشر الإسلام شرقًا وغربًا، ودخل فيه جمع من الأعاجم وأصحاب الديانات المختلفة، تعرض القرآن لحملة من التشكيك والهجوم.

وكان من أهم ما تعرض له القرآن قديمًا، أن أسلوبه لا يجرى على النمط المألوف من أساليب العرب، بل هو مغاير لكلامهم. وهذا ما حدا بعالم مثل أبى عبيدة معمر بن المثنى التيمى (ت ٢٠٧ هـ) أن يتصدى لهذه الدعوى، ويفند هذه الفرية، فيخبرنا أنه ألف كتابه «مجاز القرآن» ليرد به على إبراهيم بن إسماعيل الكاتب، الذى سأله عن قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ الصافات ٦٥، «وإنما يقع الوعد والوعيد، بما عرف مثله، وهذا لم يعرف»[1].

ويعنى السائل: كيف يشبه القرآن شجرة الزقوم، برؤوس الشياطين التى لم يرها أحد، وإنما توصف الأشياء بالأوصاف التى نعرفها، وليس بالأوصاف التى نجهلها. فيجيب أبو عبيدة على هذا التساؤل بقوله: «وإنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، وامرؤ القيس يقول:

أيقتلنى والمشرفى مضاجعي ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(١) معجم الأدباء ١٩/ ١٥٨ - ياقوت الحموى - بغداد. وفيات الأعيان ٢ / ١٥٥ - ابن خلكان - القاهرة.

Scanned by CamScanner

فشبه سنان سيفه بأنياب الغول، وهم لم يروا الغول قط، ولكن لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به[1]، أى أن هذا التشبيه جاء حملاً على مذهب العرب فى تسميتهم كل ما يستعظمونه شيطانًا.

ثم يقول أبو عبيدة: وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابًا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه، فعملت كتابى الذى سميته «المجاز».

وكلمة مجاز عند أبى عبيدة تعنى الطرق التى يسلكها القرآن فى تعبيراته، وهذا المعنى أعم بطبيعة الحال من المعنى الذى حدده علماء البلاغة لكلمة «المجاز» فيما بعد.

ونسوق بعض الأمثلة لعلها توضح معنى المجاز عند أبى عبيدة:

ففى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ...﴾ المؤمنون: ٢٨، يقول: «مجازه: إذا علوت على السفينة»[2].

وفى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ النور: ١٥، يقول: «مجازه: تقبلونه ويأخذه بعضكم عن بعض»[3].

وفى قوله تعالى: ﴿... فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ البقرة: ١٧٥، فمجازها: «ما الذى صبرهم على النار، ودعاهم إليها، وليس بتعجب»[4].

وفى قوله تعالى: ﴿... وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا...﴾ البقرة: ١٨٩، مجازها: «أى اطلبوا البر من أهله ووجهه، ولا تطلبوه عند الجهلة المشركين»[5].

---

(١) معجم الأدباء ١٩/ ١٥٨، ١٥٩ - ياقوت الحموى - بغداد.

(٢) مجاز القرآن ٢ / ٥٧ - أبو عبيدة - الخانجى.

(٣) مجاز القرآن ٢ / ٦٤ - أبو عبيدة - الخانجى.

Scanned by CamScanner

وفى قوله تعالى: ﴿... كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ المائدة: ٧٠، مجازه: «كذبوا فريقًا ويقتلون فريقًا، مقدم ومؤخر»[١].

فكان كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة، أول كتاب يبحث فى أسلوب القرآن، ويوازن بينه وبين كلام العرب، لينتهى من الموازنة إلى أنه نمط من ذلك الكلام. وبعد أن استقر فى أذهان الناس أن ألفاظ القرآن ومعانيه، إنما هى تجرى على نفس النمط الذى تجرى عليه ألفاظ العرب ومعانيهم، طاف بالأذهان سؤال جديد:

إذا كان القرآن عربيًا، جاريًا على نمط أساليب العرب، ففيم إذن كان الإعجاز؟ وهنا نشط العلماء لإبراز أسباب إعجاز القرآن، وتعددت وجهات النظر، فمن قائل: إن سبب الإعجاز هو ما فيه من تنبُّؤ بأشياء سوف تقع فى المستقبل، ثم وقعت بالفعل، مما يدل على أنه ليس من صنع البشر.

ومنهم من رأى أن سبب الإعجاز، هو الحديث عن التاريخ القديم، والرسول عليه السلام أمى لا يقرأ ولا يكتب، ولا يجالس الرهبان، ولا ممن يمكن أن يستقى منهم هذا التاريخ.

ورأت طائفة ثالثة أن سبب الإعجاز هو أن الله صرف العرب أن يأتوا بمثله، إن كان فى قدرتهم الإتيان بمثله.

ومن العلماء من يرى أن سبب الإعجاز فى القرآن: «ما يحتويه من شريعة باقية خالدة، فهو يخاطب الأجيال كلها، والأجناس كلها: العرب والعجم، والأبيض والأسود، والأحمر والأصفر، فليس ما فيه من الإعجاز خاصًا بالعرب، وإنما إعجازه يعم الجنس البشرى كله، لأنه يخاطب الجميع ويطالب الناس قاطبة بأحكامه، وفيه البينات المثبتة لكل جنس»[٢].

---

(١) مجاز القرآن ١ / ٧٣ - أبو عبيدة - الخانجى.

(٢) المعجزة الكبرى ٩٦ - محمد أبو زهرة - دار الفكر العربى.

Scanned by CamScanner

ونرى لزامًا علينا أن نعرض لبعض الدراسات القرآنية، التى كانت تهدف أو تشير إلى شىء من بلاغة القرآن وإعجازه.

(٣)

ومن هذه الدراسات كتاب «معانى القرآن» الذى يعتبر من أهم الكتب التى ألفها الفرّاء (سنة ٢٠٤ هـ) فقد جمع فيه النحو واللغة، والتفسير والرواية، ويعد موسوعة للعلوم التى يهتم بها المتعلمون فى ذلك العصر.

ولم يكن معانى القرآن، كتاب تفسير بالمعنى المعروف، فالفّراء لم يفسر القرآن آية أية، كما اعتاد المفسرون المتأخرون أن يسلكوا سبيل التفسير، وإنما يتخير من الآيات ما أشكل فحسب، متّبعًا الترتيب التنازلى فى القرآن، حيث يبدأ بالبقرة، ويثنى بآل عمران ثم النساء، وهكذا حتى يأتى إلى نهاية المصحف، وهو فى كل ذلك يدلى بآرائه النحوية واللغوية. والمهم عندنا أن الفراء قد تطرق من خلال تفسيره إلى كثير من المباحث البلاغية التى تدخل فى صميم علوم البلاغة.

ونكتفى هنا بذكر بعض الأمثلة الموجزة، ومن أراد المزيد يمكنه الرجوع إلى كتابنا «أثر النحاة فى البحث البلاغى».

فالفراء حين يصادف الحذف فى بعض آيات القرآن يجده شيئًا مألوفًا، فالعرب جرت على هذا الحذف فى أساليبها، واعتبرت فى كلامها الإيجاز طالما أنه لا يؤدى إلى خلل فى فهم الكلام، وعلى هذا المنوال، يجرى الحذف فى الكلمة، والجملة، وكل ذلك مألوف لدى العرب عند علم المخاطب به قصدًا للإيجاز والاختصار[1].

والزيادة كالحذف مألوفة فى أساليب العرب، ولذلك يجيز الفراء الزيادة فى القرآن الكريم، وهو فى ذلك متحرر من قيود المتزمتين الذين يرفضون الزيادة فى القرآن رفضًا باتًا ظنًا منهم أن فى ذلك تبرئة للقرآن من الزيادة، وتنزيهًا له عن العبث والمطاعن، وهم فى ذلك يتكلفون فى تخريج الآيات التى تحمل الزيادة تخريجا بعيدًا متكلفًا لا يتفق وروح العربية التى نزل بها القرآن. وهو يرى فى هذه الزيادة، ضربًا من التوكيد الذى يزيد العبارة تثبيتًا ويقينًا.

---

(١) معانى القرآن ٢/ ٢١٩ - الفراء - دار الكتب.

Scanned by CamScanner

(٣)

وللجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) كتاب «نظم القرآن» لم يصل إلينا، وقد أثنى عليه العلماء كثيرًا، ووصفوا الكتاب بأنه لم يعمل مثله فى هذا الفن. ولو وصل إلينا الكتاب لعرفنا رأيه تفصيلاً فى قضية الإعجاز، ومهما يكن من شىء فإن الجاحظ فى رسائله، يخبرنا بأن القرآن معجز بنظمه، وقد تحداهم بهذا النظم المعجز[١].

رأي الجاحظ في الإعجاز

ورغم فصاحة العرب وبلاغتهم التى لا تبارى، انصرفوا عن معارضة القرآن بعد أن تحداهم الرسول بأن يأتوا بمثله أو بشىء منه، انصرفوا عن معارضته، لأنهم يئسوا عن مجاراته، ولم يطمعوا فى بلوغ شأوه؛ ولو تكلف بعضهم، وجاء بشىء فيه أدنى شبهة، من محاذاته للقرآن، لعظمت القصة على الأعراب، وللقىَ المسلمون عملاً يعقدون به المقارنة، ويطلبون فيه المحاكمة، ولكثر القيل والقال... فالقرآن بنظمه الصادق البديع لا يقدر على مثله العباد[٢].

(٤)

والنظّام أحد علماء المعتزلة، يرى أن القرآن نفسه غير معجز، فهو فى رأيه كتاب مثل سائر الكتب، لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والهداية والضلال، والعرب إنما لم يعارضوه، لأن الله صرفهم عن ذلك وسلب علمهم، أى إن الإعجاز فى المنع وليس فى القرآن، إذ إن العرب فيهم ذلاقة لسان، وانطلاق عبارة، وهم قادرون على صياغة الكلام، فى أسلوب جميل خلاب، أى أنهم قادرون على الإتيان بسورة من مثل القرآن فصاحة وبلاغة، ولكن الله صرف هممهم عن مجاراة القرآن[٣].

والفرق بين قول النظام بالصرفة وقول الجاحظ: إن النظام يرى أن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثله، فصرفهم الله عن ذلك، فكان هذا الصرف، دليلاً على الإعجاز.

بينما الصرفة عند الجاحظ أن البلغاء من العرب طمعوا فى مجاراة القرآن، ثم يئسوا من الوصول إلى رتبته العالية المعجزة، فانصرفوا عن ذلك لانقطاع أملهم.

---

(١) رسائل الجاحظ ١٠٢، ١٠٣ - الجاحظ - السلفية ١٣٤٤ هـ. منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن ٢٠٦ - مصطفى الجوينى - دار المعارف ط ٢.

(٢) الحيوان ٤ / ٨٥ - الجاحظ.

(٣) أمالى المرتضى ١ / ١٨٧ - الشريف المرتضى - عيسى الحلبى.

Scanned by CamScanner

وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) عالم من أكبر علماء القرن الثالث الهجرى. ويعد دائرة معارف شاملة وموسوعة كاملة، له عديد من المؤلفات فى كل لون من ألوان الثقافة والمعرفة. غشى مجالس علماء التفسير والحديث، والنحو واللغة، والأدب والتاريخ، وأخذ من هؤلاء وهؤلاء، مما هيأ له أسباب التفوق والظهور.

كما كان ابن قتيبة علمًا من أعلام أهل السنة وإمامًا من أئمتهم، بل هو لأهل السنة بمنزلة الجاحظ للمعتزلة: يتحدث بلسانهم كما كان الجاحظ يتحدث بلسان المعتزلة، يقول ابن تيمية: «... وهذا القول، اختيار كثير من أهل السنة، منهم ابن قتيبة، وهو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب أهل السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة»[١].

ومن أهم كتب ابن قتيبة كتاب «تأويل مشكل القرآن»، ويشرح لنا فيه معنى المتشابه والمشكل، فيقول: «وأصل التشابه: أن يشبه اللفظ اللفظ والمعنيان مختلفان.. ومنه يقال: اشتبه علىّ الأمر إذا أشبه غيره فلم تكد تفرق بينهما، وشبّهت علىّ: إذا لبّست الحق بالباطل، ثم يقال لكل ما غمض ودق: متشابه.

ومثل المتشابه: المشكل، وسمى مشكلا، لأنه أشكل: أى دخل فى شكل غيره، فأشبهه وشاكله، ثم يقال لما غمض مشكل، وقد بينت ما غمض من معناه - أى القرآن - لالتباسه بغيره، واستتار المعانى المختلفة تحت لفظه، وتفسير المشكل الذى ادعى على القرآن فساد النظم فيه»[٢].

وقد ذكر ابن قتيبة فى مقدمة كتابه المشكل: فضل القرآن لا يعرفه إلا من كثر نظره، واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس فى جميع الأمم أمة أوتيت من المعارضة والبيان واتساع الخيال ما أوتيته العرب.

---

(١) تفسير سورة الإخلاص، ٨٦ - ابن تيمية - الإمام.
(٢) المصدر السابق.

Scanned by CamScanner

ومن ثم كان لزامًا على العلماء أن يتناولوا لغة القرآن وبلاغة القرآن، وعلى النقاد أن ينزلوا هؤلاء العلماء منزلتهم، وأن يضعوهم فى أماكنهم دون أن يغفلوا حقهم من التكريم، وبيان أثرهم فى البلاغة بصفة عامة، وبلاغة القرآن بصفة خاصة.

وفى صدر كتابه المشكل يخبرنا أن القرآن نزل بلغة العرب، وللعرب المجازات فى الكلام، ومعناها: طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإخفاء والإظهار، والتعريض والإفصاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة سنراها فى أبواب المجاز، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن [1].

(٦)

وقد صنف الرمانى (ت ٣٨٦ هـ) رسالة مختصرة، عن "النكت فى إعجاز القرآن"، وهى رسالة قصد بها الاختصار، دون التطويل بالحجاج، لإظهار وجوه إعجاز القرآن.

ووجوه الإعجاز عند الرمانى تظهر من سبع جهات:

ترك المعارضة مع توافر الدواعى وشدة الحاجة.

والتحدى للكافة.

والصرفة.

والبلاغة.

والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة.

ونقض العادة.

وقياسه بكل معجزة.

ويعرّف البلاغة بأنها: إيصال المعنى إلى القلب، فى أحسن صورة من اللفظ [2].

---

(١) تأويل مشكل القرآن ١٥، ١٦ - ابن قتيبة - عيسى الحلبى.

(٢) ثلاث رسائل ٧٥ - الرمانى والخطابى - دار المعارف.

Scanned by CamScanner

الإعجاز فى القرآن لا يتم إلا بمثل هذه الدعوى الفاسدة، والأمر بحمد الله أظهر من أن يعضده بمثل هذا القول، الذى ينفر عنه كل من علق من الأدب بشىء، أو عرف من نقد الكلام طرفاً»[1].

أما الخطابى (ت ٣٨٨ هـ) فى رسالته "بيان إعجاز القرآن" فلا يرى تعليل الإعجاز عن طريق البديع، أو ما تضمنه من صور بلاغية كما ذهب الرمانى، وإنما اختار طريقة النظم والتأليف، التى ذهب إليها الجاحظ، الذى ألف كتابًا فى نظم القرآن.

فالكلام عنده يقوم بثلاثة أشياء:

لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن، وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا، وأشد تلاؤمًا من نظمه.

وأما المعانى فتشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من صفاتها. وقد توجد هذه الفضائل الثلاث، على التفرق فى أنواع الكلام، ولا توجد مجتمعة إلا فى كلام العلى القدير[2].

فالخطابى - إذن - لا يهمل فصاحة الكلمة، وإنما هى جزء من فصاحة الكلام وبلاغته وحسن النظم، كما تكون ائتلاف الكلمات بعضها مع بعض فى انسجام وتلاؤم، وينبغى أيضا أن تكون جميع ألفاظه حسنة، تتوافر فيها شروط الفصاحة.

فالألفاظ فى الكلام البليغ لها مقصد خاص، إما لنغمتها وسهولتها، وإمّا لمعناها، أو هما معًا ولا يكون مرادفها صالحًا لأن يحلّ محلها.

---

(١) سر الفصاحة ٩١ - ابن سنان الخفاجى - القاهرة. تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٣٤٣ - إحسان عباس - بيروت.
(٢) ثلاث رسائل ٢٧ - الرمانى - دار المعارف.

Scanned by CamScanner

اللفظ مواتًا لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة فى السمع، وكذلك إن اختل اللفظ جميعه وتلاشى، لم يصبح له معنى، لأنا لا نجد روحًا فى غير جسم ألبتة»[1].

واجتمع حشد من الآراء المتفقة أو المختلفة، على مدى أربعة قرون حول قضية اللفظ والمعنى، وليس من همنا أن نستقصيها هنا بعد أن أشرنا إليها فى كتابنا «فن البلاغة».

(٨)

أما الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) فى كتابه «إعجاز القرآن» فقدرفض فكرة البديع، باعتبارها أساسًا لبلاغة القرآن، وهاجم من ارتكز عليها.

«وقد قَدر مقدرون، أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من أبواب البديع، وإن ذلك مما يمكن الاستدلال عليه، وليس كذلك عندنا، لأن هذه الوجوه - يعنى وجوه البديع - إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود، وذلك كالشعر إذا عرف الإنسان طريقه، أمكنه نظمه»[2]، فالباقلانى لا يعتبر البديع سبيلاً لإثبات الإعجاز، لأن المرء يمكنه أن يمهر فيه، وأن يحذقه إذا تدرب عليه وتفرغ له، وإن كان البديع يدل على البراعة والصنعة.

وينتقل الباقلانى من هذا التعميم إلى التخصيص، فيوجه النقد إلى الرمانى الذى استغل البديع ونوه به، وجعله مضمون بلاغة القرآن التى يعود إليها الإعجاز، فيقول: «ذكر بعض أهل الأدب والكلام، أن البلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز والاستعارة والتشبيه والتلاؤم والفواصل، إلخ... ويلخص كتاب النكت - يعنى بذلك الرمانى - وإنما ننكر أن يقول قائل: إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز من غير أن يقارنه بما يتصل به من الكلام ويفضى إليه، مثل ما يقول: إن التشبيه وحده معجز، وإن التجنيس معجز، والمطابقة بنفسها معجزة، فأما الآية التى ذكر فيها التشبيه فإن ادعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها، فإنى لا أدفع ذلك ولا أصححه، ولكن لا أدعى إعجازها لموضع التشبيه، وصاحب المقالة التى حكيناها أضاف ذلك إلى موضع التشبيه، وما قرن من الوجوه»[3].

---

(١) العمدة ١ / ١٢٤ - ابن رشيق ط ٤.

(٢) إعجاز القرآن ١٦١، ١٦٢ - الباقلانى - دار المعارف

(٣) إعجاز القرآن ٤١٨ - الباقلانى - دار المعارف.

Scanned by CamScanner

ونلحظ من هذا النقد الذى يوجهه الباقلانى إلى الرمانى حين اعتبر ألوان البديع سبباً فى الإعجاز، نراه يميل فى الوقت نفسه إلى رأى الخطابى ومن ذهب مذهبه، فى اعتبار النظم - وليس البديع - هو الذى يتمثل فيه الإعجاز.

وقد اختار الباقلانى النظم طريقًا للإعجاز، لأن القرآن يتميز عن أساليب العرب، فالقرآن ليس سجعًا ولا شعرًا، وليس خطابة، ولا جاريًا مجرى الرسائل، رغم تعدد مذاهبه وتصرف وجوهه. وهو متناسب لم يطرأ عليه الاختلال، أو الاختلاف، أو التكلف، رغم طوله وكثرة سوره وآياته، وإنما كان على حد سواء من حسن النظم وبديع الرصف. أما الشاعر فيتفاوت شعره بحسب الأحوال، فهو بارع فى معنى، ومقصر فى معنى آخر... وكذلك ترى الاختلاف فى الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام.

إن وجوه العرب وفصحاءهم سلموا بتقدم القرآن فى الفصاحة والبلاغة، وأظهروا العجز عن معارضته ووصفوه بالحلاوة والطلاوة.

كما أن الباقلانى لا يغفل فصاحة الكلمة، حين يردّ الإعجاز إلى النظم، فللكلمة ذاتها فصاحة خاصة، ووقع خاص، ورنة عالية أو هامسة، يقول: «وأنت ترى جمال الكلمة من القرآن، يتمثل فى تضاعيف كلام كثير، وهى غرة جبينه»[1].

وهكذا سيطرت فكرة الإعجاز والبحث عن أسبابها على كثير من العلماء فى البلاغة والنقد، حتى إننا نرى أبا هلال العسكرى (ت٣٩٥ هـ) وقد ألف كتابه الصناعتين:

صناعة الشعر وصناعة النثر - وهو كتاب بلاغى الطابع يحتل فيه البديع أكثر من ثلثه - نراه يتأثر بفكرة الإعجاز وتوجيهه فى تأليف هذا الكتاب:

ففى المقدمة يوضح العلاقة بين فكرة الإعجاز والبلاغة ويربط بينهما فيقول: «إن أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ - بعد المعرفة بالله جل ثناؤه - علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى»[2].

---

(١) إعجاز القرآن ٦٤ - الباقلانى - دار المعارف.

(٢) الصناعتين ١ - العسكرى - القاهرة.

Scanned by CamScanner

من الفقهاء والمتكلمين لجهلهم بهذه الصناعة، وعدم فهمهم لقوانينها... ومن ينكر أن يكون القرآن بعضه أفصح من بعض، هل ينكر أن القرآن فى لغته أفصح من التوراة فى لغتها، والإنجيل فى لغته، والزبور فى لغته، لأن تلك الكتب عنده لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة، وإن كان الجميع كلام الله تعالى، فما المانع أن يكون بعض كلامه الذى هو القرآن أفصح من بعض؟ حتى تكون آية منه أفصح من آية، والجميع كلام الله، كما جاز أن يكون القرآن أفصح من الإنجيل، وإن كان الجميع كلام الله، وهذا لا يخفى على محصّل.

ووجه الإعجاز فى القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وهذا هو المذهب الذى يعول عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم، ولو سلمنا أن وجه الإعجاز هو الفصاحة، فما المانع أن يكون كلام معجز يخرق العادة بفصاحته، أفصح من كلام معجز يخرق العادة فصاحته، فإن نبيًّا لو أظهر الله على يديه معجزًا وهو حمله ألف رطل - لم يمنع أن يظهر على يده أو على يد نبى غيره معجزًا آخر - وهو حمله ألفى رطل - فيكون المعجزان أحدهما أعظم من الآخر، مع كون كل واحد منهما معجزًا[1].

فإذا انتهينا إلى عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) الذى وضع كتابيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، ليستكشف مواطن الإعجاز فى القرآن الكريم «نجد كلا الكتابين يدور حول قضية واحدة: هى قضية النظم، غير أنه فى الدلائل أفرغ جل اهتمامه على التركيب وفى الأسرار وجه كل عنايته على البواعث النفسية للمعانى، وموقعها فى الفوائد»[2].

ويمكن القول: إن آراء العلماء السابقين قد اجتمعت بين يدى عبد القاهر، فأعمل فيها فكره الثاقب، وإحساسه النافذ، فرفض أن يكون مدار البلاغة على اللفظ، أو على المعنى، وإنما البلاغة فى العلاقة بين الألفاظ فى العبارات من جهة، وبينها وبين المعنى من جهة أخرى، وتسمى هذه العلاقات بالنظم.

---

(١) سر الفصاحة - ص ٢١٥ - ٢١٧ ط القاهرة، صبيح.

(٢) من الوجهة النفسية ٧٥ - محمد خلف الله - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧ م.

Scanned by CamScanner

ويتساءل عبد القاهر: هل الإعجاز فى الألفاظ؟

وينفى ذلك نفيًا قاطعًا لأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة، ولا من حيث هى كلم مفردة، وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها، فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ[1].

وهذه الألفاظ المفردة كانت أيضًا مستعملة عند العرب قبل نزول القرآن.

وهى نفس الألفاظ التى يعبر بها القرآن، فليس للألفاظ بلاغة فى ظل كلام مجتمع ومعانٍ متآخية. ويمنع منعًا مطلقًا أن تكون الألفاظ وحدها، أو الكلمات منفردة، سببًا للإعجاز.

وينفى أيضا أن يكون الإعجاز فى الإيقاع الموسيقى لأن ذلك قد ينطبق على مثل حماقات مسيلمة فى قوله: «إنا أعطيناك الجواهر فصل لربك وجاهر».

كذلك ليس موطن الإعجاز فى الفواصل، لأن الفواصل فى الآيات، كالقوافى فى الشعر، والعرب قد أتقنوا ذلك وأحسنوه.

والإعجاز ليس فى المجاز من استعارة أو كناية أو تمثيل، لأن ذلك يقتصر على بعض الآيات دون بعضها الآخر من سور القرآن[2].

وإذا كان إعجاز القرآن لا يعود إلى ألفاظه أو موسيقاه أو صوره البيانية، فأين موطن الإعجاز إذن؟

موطن الإعجاز هو فى النظم وحده.

والمقصود بالنظم عند عبد القاهر هو توخى معانى النحو.

وعبد القاهر لا ينظر إلى النحو كما ننظر نحن إليه الآن، وكما هو شائع ومألوف فى الكتب المخصصة للنحو، فالنحو عند عبد القاهر لا يقتصر أمره على معرفة الصحة

(١) دلائل الإعجاز ٧٨ - عبد القاهر الجرجانى - المنار.
(٢) دلائل الإعجاز ٣٠٠ - عبد القاهر الجرجانى - المنار.

Scanned by CamScanner

والخطأ فى العبارة، وإنما يتجاوز ذلك إلى مواطن الجمال، والتفرقة بين الأساليب المتفاوتة في الجودة والقبح. ويتدرج عبد القاهر في تحليل الأساليب، وبيان قيمتها الفنية، إلى أسمى الأساليب، وهو أسلوب القرآن الذى بلغ حد الإعجاز.

فالإعجاز يكون فى أمور شتى، منها تناسق الكلمات، وما تشعه من معان وأخيلة بيانية، فى ثنايا أسلوب مكتمل البنيان، يلتقى بأنغامه وفواصله وصوره البيانية، مع الألفاظ المحكمة، والمعانى السليمة التى لم يكن من قبل عهد للناس بها.

فمعانى النحو - إذن - لا تتضح فى إعراب الكلمات وبنائها .

ولا فى تفسير الألفاظ ومعانيها، فنطلق على هذه الكلمة أنها مبتدأ، وعلى الأخرى أنها خبر، أو أن هذه فاعل، وتلك مفعول أو فعل، بل باتحاد أجزاء الكلام ودخول بعضها فى بعض، وارتباط الثانى بالأول، كما يتضح فى الوحدة الشاملة بين أجزاء الجملة، وبين الجملة والجملة فى مجموعة من العلاقات المنظمة، المتناسقة بين أطراف الكلام. وبعبارة أكثر إيجازًا، النظم عند عبد القاهر هو الأسلوب، وبشىء من الدقة - وعلى حد قوله - «الأسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه»(١).

وعند هذا الحد ينتهى نظر عبد القاهر فى قضية الإعجاز، ولأن هذا النظم هو أساس الجمال أيضًا فى الشعر والنثر، يتجه عبد القاهر إلى النقد والبلاغة ليضع فيهما أحكامًا يأخذ بها العلماء، ويعملون على تطبيقها.

ويذكر الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) فى مقدمة تفسيره الكشاف أن علم التفسير ليس مباحًا لكل ذى علم أن يجيل فيه النظر، ويعطى لنفسه الحق فى تناول آيات القرآن الكريم بالتفسير، حتى وإن كان فقيهًا، أو متكلمًا أو راوية، أو واعظًا أو نحويًا، أو لغويًا، مهما برز فى هذه العلوم وتسنم ذروتها، ليس له أن يتصدى للتفسير ويسلك ... على حقائقه «إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن: وهما علم

Scanned by CamScanner